الشخصيات العربية

obeikandl.com

obeikandl.com

أبو العيناء

الشاعر الساخر

obeikandl.com

حينما ولدته أمه.. كان قبيح الخلقة.. أحْول العين.. وتمنت الأم أن يموت ولدها القبيح ولا يراه أحد من الناس.

وحينما رآه أبوه.. رفع وجهه إلى السماء راضياً بما قسمه الله له.. فأسماه محمداً لعله يحظى باحترام الناس.

إنه محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر.. الهاشمي ولاءً.. المكني بأبي العيناء.. وقد عاش في العصر العباسي الأول حتى جاوز التسعين.. وقد عاصر الجاحظ وبينهما سجال وأخبار كثيرة.

نشأ الفتى في البصرة.. واتخذ السخرية سلاحاً يدافع به عن نفسه إزاء من يسخر به.. فلم يضق بحَوَلِه الذى امتد أربعين عاماً.. ولم يضق بالعمى الذى لازمه خمسين عاماً أخرى.

وقد وصفه أحد الشعراء المعاصرين له بقوله:

أحْوَلُ العين والخلائقُ زينٌ لا احْولال بها ولا تلويُن

ليس للمرء شائناً حَوَلُ العيـ ـنِ إذا كان فعلُهُ لا يشينُ

بل إنه أيضا رأى فضيلة في الهوى وخلاصاً من مراقبة العذال فقال:

حمدتُ إلهي أن بلانى بحبِّها

على حوَل يُغنى عن النظرِ الشزرِ

نظـرتُ إليهـا والرقيـب يظنّنـى

نظرتُ إليه فاسترحتُ مـن العذرِ

وحينمـا أصيـب بالعمـى.. بـدأ يفاخـر بذلـك ويؤكـد موهبتـه الشـعرية والعقليـة فقال:

إن يأخـذ الله مـن عينـىَّ نورَهمـا

ففى لسانى وسمعى منهما نورُ

قلبـى ذكىٌّ وعقلى غـير ذى خَطَلِ

وفى فمى صارمٌ كالسيف مأثورُ

وظـل أبـو العينـاء طـوال حياتـه قبيـح الخلقـة.. لكنـه مـع ذلـك كان يمتلـك لسـاناً ذكيـاً فصيحـاً.. ويُعَـدُّ مـن ظرفـاء العـرب.. ولـه نـوادر وحكايـات ومراسـلات عجيبـة، وقـال عنـه ابـن كثـير: لـه معرفـة تامـة بـالأدب والحكايـات والمُلـح، أمـا الحديـث فليـس منـه إلا القليـل.

وقـال عنـه الحُصْـرى: وكان أبـو العينـاء أحـدَّ النـاس خاطـراً.. وأسـرعهم جوابـاً.. وأبلغهـم خطابـاً. وقـد حظيـت مواهبـه وأخلاقـه بتقديـر الخلفـاء والـولاة.. فكانـوا ينادمونـه.. ويحبـون الاسـتماع إليـه. ويـروى أنـه دخـل يومـاً علـى الخليفـة المتـوكل فـى قصـره المعـروف بالجعفـري.. فقـال لـه المتـوكل: مـاذا تقـول فـى دارنـا هـذه؟.

فقال أبو العيناء: إن الناس بنوا الدور فى الدنيا.. وأنت بنيت الدنيا فى دارك.. فاستحسن الخليفة إجابته.

ومرة أخرى داعبه المتوكل فقال: إن سعيد بن عبد الملك يسخر منك.

فقال أبو العيناء: "إن الذين أجرموا من الذين آمنوا يضحكون". ويذكر الصفدي فى كتابه (نكت الهميان) عن أبي العيناء قوله:

قلَّ إن وجد أعمى بليداً.. ولا يرى أعمى إلا وهو ذكى، منهم أبو العيناء وأبو العلاء.

والسبب الذى رآه فى ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه.. ولا يعود متشبعاً بما يراه.. ونحن نرى الإنسان.. إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه.. فيقع على ما شرد من حافظه.. وفى المثل: أحفظ من العميان!.

لم يعتزل أبو العيناء الناس.. بل تحدي هذا العمى وكان راوية للأخبار والقصص ونوادر الأدب.. فأقبل الناس عليه يحدثونه ويسمعون منه.. وإلى جانب أنه شاعر نظم فى الحكمة والغزل والهجاء.. فقد كتب رسائل إخوانية منها ما كتبه يذم به أحمد بن الخصيب على لسان الكتَّاب والرؤساء والقواد وغيرهم.. ومنها ما تحدث فيها عن مساوئ أهل عصره.

أما سلاح السخرية الذى كان يذود به عن نفسه.. فقد استخدمه فى مواقف كثيرة.. والغريب أن سرعة بديهته كانت حاضرة بشكل لافت، فمن ذلك مثلاً أن ابن نوح النصراني عتب عليه.. فبلغه ذلك.. فقال: (ولن ترضي عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم).

وقدم صديق عليه ذات مرة.. فدعاه إلى الطعام.. وجعل الصديق يروى ويكذب.. فالتفت إليه أبو العيناء وقال: نحن كما قال الله تعالي: (سمعون للكذب أكلون للسحت)!.

وقد تكون سخريته بجملة قصيرة تحمل معنى مضحكاً، فقد زاحمه رجل على حمار بالجسر.. فضرب بيده آذان الحمار.. وقال: يا إنسان قل للحمار الذى فوقك أين الطريق..

ووعده أحدهم أن يحمله على بغل.. فلقيه فى الطريق وقال: كيف أصبحت يا أبا العيناء؟.

فقال: بلا بغل!.

فضحك من قوله.. وبعث إليه بالبغل.

وأكثر نوادر أبي العيناء الساخرة يقولها ساخراً بمن أرادوا أن يسخروا به..

ومن ذلك قال له أحدهم: أشتهى أن أرى الشيطان.. قال: انظر فى المرآة وأنت تراه.. فقال له أحدهم: كيف أكتب اللؤم.. بلام أو بلامين؟

فأجاب: صور نفسك!.

وكما كانت حياته مثاراً للسخرية.. كان موته أعجب.. فقد كان قد انحدر من بغداد إلى البصرة فى زورق فيه ثمانون نفساً.. فغرق الزورق.. ولم ينجُ ممن كان فيه إلا أبو العيناء.. فقد تعلق – وهو أعمى – بقطعة خشب من الزورق.. وخرج حياً وتلف كل من معه ووصل البصرة حيث مات سنة ٢٨٢ه.

وهكذا نرى أبا العيناء قد عشق الحياة وعمر حتى التسعين من عمره.. وكان من ظرفاء عصره وبؤسائه.. ويبدو أن شر البلية ما يضحك وما يندر.. فقد جعله العمى والبؤس والفقر أكثر تمسكاً بالحياة.. وأكثر سخرية من الناس أغنيائهم وأصحاب السلطان منهم وتفجر ذلك كله فى مواقفه وكلماته وأشعاره مع أهل زمانه.